

الفريجة والحيرة والذهول بين الشاعرين الجاهليين والمعاصرين

بقدم الدكتور محمد بن الحياط

او رامية او ساقية ، ولا يملك وهو في مثل هذه الحال الا ان يقصف ويستوقف :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي واحجار اقوى واقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابي الترب موار وقفت فيها سراة اليوم اسالها عن آل نسم امونا غير اسفار فاستعجت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات اخبار والنايفة يريد ان يكلم ديار الحبيبة بعد ان يطلق احتجاجه الصراخ بان التحية لن تصيب منها شيئا ، ولكن ذهوله يقوده الى ان يحدث تلك الاحجار ويستنطقها ثم يعود ويسترجع الماضي برؤية واضحة وتفهم امامه الصورة المائلة لتحل مكانها الصورة الذاهبة التي يعيدها خياله الى الوجود :

وقد اراني ونعما لاهيين معا والدنن والعميش لم يهم بامرار ايام تخبرني نسم واخبرها ما اكتم الناس من حاجي واسراري ثم يستعيد التجربة التي تمنها الشعراء جميعا حين قضت طبيعة الصحراء على الاحبة بالانفصال الدائم :

رايت نعما واصحابي على عجل والعميس للبين قد شدت باكاوار فربع قلبي وكانت نظرة عرضت حيننا وتوفيق اقدار لاقدار ويبلغ به الذهول ذروته والانهار اقصى حالاته فتضطرب امامه الرؤى فيستغيث بصاحبه متشبها متوسلا :

اقول والنجم قد مالت واخره الى المغيب تثبت نظرة حار المحة من سنا برق راي بصري ام وجه نعم بدا لي ام سنا نار بل وجه نعم بدا واللبل معتكر فلاح من بين اثواب واستار اهذا الذي يتراءى امام الشاعر سنا برق ام وجه نعم ام سنا نار، بل هو - بالتأكيد - وجه نعم . وهكذا يصل الذهول بالشاعر الى الفيض الموقته ، وحين يفصح النايفة عن احتجاجه : « ماذا تحيون من نؤي واحجار » يعبر عن اقصى درجات الحيرة ، وقد تشابهت احساس الشعراء ازاء هذا الموقف فقد تساءل لبيد ايضا :

فوقفت اسالها وكيف سؤلانا صما خوالد ما يبين كلامها والملك الضليل سبق الشعراء الى هذه الصلة القوية القائمة بين الشاعر وبين الظل واحتج بان لا معمول على الرسم الدارس ولكنه بالرغم من ذلك لا ينفك يخاطبه ويكيه ويقبله ويحدده تحديدا جغرافيا من جهاته الاربع ، وكان قد استرجع ساعة الفراق واخبرنا انه اختفى بين الشجيرات يرقب ركب الحبيبة الذاهب باكيا عاجزا .

ولا يقف الشاعر الجاهلي ولا يستوقف حتى يتأكد من منتجج الاحبة وموطن الذكريات لشدة حبه له وتشبثه به كرمز الارض الناشئة والسكن الدائم ، والصحراء متشابهة ومعالها ضئيلة قليلة وقد تخطيء ذاكرة الشاعر فيصرف ساعات وساعات باحثا متقبا عن نؤي يعينه كان يسور خيمة اللقاء او دمنة شاهدة على حب غابر ، وقد يصعب او يستحيل على الشاعر معرفة ذلك الطلب بالذات فهو يبدو احيانا كآثار قديمة لوشم على يد كما يقول طرفة :

لغولة اطلال بركة نهمسد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد وزهير يضن بدموعه ومشاعره ان تتبدد على مكان متوهم لان الذكريات ثارت في نفسه بعد عشرين عاما مضت على منتجج اللهو والملاذ اللليل وقد يكذب الشاهد والظل :

الشاعر الجاهلي لا وطن له او هو غريب في بيته ، والشاعر الحديث منفي في وطنه او في خارجه ، فهل هناك ما يربط بين الجد والحفيد في الفربة والتوحد والحيرة والذهول ؟!

يضرب الشاعر الجاهلي في هذه المفازات الشاسعة المخيفة راكبا ناقته مطرقا مفكرا في ابعاد هذه الصحراء ، ويسري في الليل الموحش يهديه نجم ، وقد يلف الحداء تهويماته اللامتناهية ، او يمتطي صهوة جواده في النهار مسرعا ذووبا الى غاية مجهولة ، وكأنه يهرب من مطارد موهوم ، وتمر به فترات من الذهول يتلفت فيها حوله محذقا في هذه الرمال المترامية بحسرة ، يريد تفسيرها او يحلم بالرفض ، ويدرك ان لا بيت له ولا مستقر ، فهو منفي في وطنه ، هائم في صحرائه ، قلق في منتججه .

ويجد الشاعر في تشبثه وضياعه ظلا وارفا تمثله الحبيبة فينهد اليها بحثا عن ملجأ وسكينة فتتسبب مظاهر حياته الداهلة الحائرة وتبلغ به النشوة اقصى حدودها ثم تأتي ساعة الفراق سريعة صاعقة فيزم اهلها الركاب ليلا فالمكان اقفر بعد خصب المياه تصوحت والاغصان يبست ، فيقف مشدوها لا يطيق لهذا الفراق منعسا ولا يدري الى اين سيتجه الركب والى اي سراب حقيقي سيفيء ، وهل سيكتب له لقاء بعد فراق ووصل بعد هجر ؟!

ويكثر من التفكير في رحلة الحبيبة المجهولة ، وقد يخمن او يرجم بالفيب كما فعل لبيد بذهول تام تفصح عنه هذه الاماكن التي يستغرق الشاعر في تعدادها :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت اسبابها ورمامها مربة حلت بفيد وجاورت اهل العراق فاين منك مراما بمشارق الجبلين او بمحجر فتضمنتها فردة فرخامها فعوائق ان ايمنت فمظنة منها وحاف القهر او طلخامها

ويلف الياس شاعرنا باحاسيس الالم الدائم ويعود يضرب ثانية في هذه المفازات الشاسعة تؤله الذكرى ويضنيه البعاد ويعاوده الحنين بين فترة واخرى ، وقد يمر في روحاته وغدواته بديار الحبيبة وقد انمحت آثارها او كادت الا من نؤي ودمنة وانفية فيتبين هذه الاثار بحرقه - بعد بحث وتدقيق - وحين يتأكد من موطن الذكريات يقف مضطربا لا يستطيع ان يخفي انفعالاته فتترقق الدمنة من عينيه شاهدة على الضياع الابدي ، ويبلغ الالم اقصاه وتتناقل الصحراء مواجده عبر الاجيال والهور :

فما وجدت بها شيئا الود به الا الثمام والا موقد النار فهو يكاد يقبل حتى الاحجار ويلوذ بها من واقعه ويشتم هذا التراب الذي كانت تيمس عليه الحبيبة جيئة وذهوبا جالسة او لاهية

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
فلما عرفت الدار قلت لربما إلا أنعم صباحا أيها الربع واسلم
ويحار عنثرة الفارس الشاعر فيتساءل في ذهول تام :

هل غادر الشعراء من مردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

ويصعب على من سكن الحضرم ولم يعهد البداوة في أطوارها
الطبيعية أن يشارك الشاعر في التجربة الظلمية ، وقد يذهب بعض
النقاد إلى أن الوقوف على الإطلال تقليد داب عليه الشعراء في مطالع
قصائدهم ليتخلصوا بعد ذلك إلى الموضوع المراد هجاء أو مدحاً أو
وصفا الخ... ، أو أنهم اعتبروا الوقوف على الإطلال مقدمة لقصائدهم
تشد إليها أسماع المصنفين وانتباههم وتؤدي بهم إلى ما يريد الشاعر أن
يفصح عنه ، وأن صح هذا في الشعر الأموي أو العباسي مثلا فهو لا
يصح بالنسبة إلى قسم من الشعراء الجاهليين ، فلا شك أنهم قد
مروا بالتجربة نفسها وعانوا من الغربة والحيرة والوحدة والحنين إلى
أرض ثابتة فافتتحوها فصائدهم بالبكاء على الإطلال تعبيراً عن تجربة
بداها أحدهم في شعره واستساقها واستحسنها الآخرون .

هذه الحيرة العميقة كانت تلف حياة الشاعر الجاهلي فلا يستقر
على حال ولا يثني يختلف ويتقلب في مشاعره واحاسيسه ويتحدث في
قصائده عن موضوعات متعددة متشعبة وغير منسجمة أحيانا ، وقد
يغاطب الحجر أو يحيي الرمال أو يقبل الأثافي أو يعطف على الوحش
الذي سكن ديار الحبيسة أو قد يؤدي به الأمر إلى أن يخرج على ما
ترتابه القبيلة وتقهره ويتمرد على حياة الصحراء الرتيبة وتغالبها
فتخلعه القبيلة وتنبذه فيصبح شربدا تائها في هذه الصحراء الواسعة
فيمثل في جاهليته وتمرده طرازا طبيعيا عفويا لفريق من الناس
الرافضين الغبراء في ديارهم ، وينهي الينا الفلام القليل طرفه من العبد:
وما زال شرابي الخمر ولذتي وبيعي وأنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامنتي العشيبة كلها وافردت أفراد البعير العبد
وما قتل طرفه إلا استقلاله الشخصي وتمرده العفوي على مفاهيم

عصره والحيرة العميقة التي تصيب الإنسان في عالم الصحراء الواسع،
وقصته مع عمرو بن كلثوم وتفرقه باخته وهجائه إياه معروفة وقد أدت
به أن يقتل مخمورا في البحرين ، وإذا ما ذهبنا إلى أنها مختلفة فهي
حتمًا تمثل في حقيقتها أو تزييفها طرازا معيناً من الأجواء التي أحاطت
بالشعر الجاهلي ، وقد أخبرنا طرفه أنه يعيش للخمر والنساء
والفروسية ولولا هذه الأمور لما حفل بموت أو حياة :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبق العادات بشرية كمت متى ما فعل بالماء تزيد
وكرى إذا نادى المضاف محنيا كسبد الففا نبهته المتورد
وتقصر بهم اللحن والدجن معجب بهكئة تحت الخساء العمود

وكانت حياة قسم من الجاهليين لانتفاء واضحا يتمثل في الشعراء
الصعاليك بصورة خاصة ، وقد عبر هؤلاء الشعراء عما طاف في
أذهانهم من أفكار بصدق طبيعي يمكن أن تتوصل به إلى معرفة الجسم
الذي عاشه الشاعر الجاهلي وتبينه في قصائده المليئة - خاصة في
الطام - بالحيرة والحنين والتشتت والذهول .

إن التنقل الدائم طلبا للقاء والكلا جعل الشاعر يحس أن لا بيت
له ، وهذه الصحراء التشابهة الرتيبة المناظر حملت الشاعر على أن
يحن لوطن وهو فيه ، وكانه غريب مطارد ، ولذا قامت الصلة القوية
بين الشاعر والطلل تعبيراً عن الحنين والتشتت اللذين كانا يلفان الشاعر
الجاهلي بدهول عميق ، فاي وحدة قائمة كانت تصف بالشاعر فخاطب
طللا ويقبل حجرا ويشم ترابا وينرف اللمع على الآثار التي تربطه
بأرض حسب أنها لا تتغير ، وتتمثل هذه الرابطة بحبيبة ذاهبة رمزا
للحياة الماثلية والاستقرار ، وإطلال ثابتة تعود به إلى الماضي المفقود .

وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً ، وعبر هذه العصور

المتعاقبة ، تلفت الشاعر المحدث ، كجده العظيم ، يحدق
في الأبعاد التي تلف حياته في هذا العصر الآلي المتناقض،
فاضطربت شخصيته بين الرفض والخنوع والطبيعي
والمتعل ، وتوترت أعصابه بين حياة راكدة غبية يعيشها
وبين توقيت سريع فرضته معطيات القرن العشرين على
أفكاره وأخيلته فتطلع إلى تغيير هذه القشرة الأرضية
وتجديدها، دفعة واحدة ، وكما اتخذ الشاعر الجاهلي من
المرأة والدار علامات للاستقرار والتوطن والدعة
والاطمئنان ، ووجد شعراء آخرون الحياة فسي كنف
المدوحين الأغنياء سبيلا إلى الهروب من التشرد والغربة
والعذاب الفكري ، حاول الشاعر الحديث منفعا ومتعجلا
أن يلوذ بفكرة أو فلسفة أو طريقة أو أسطورة كوسيلة
تحدد من انطلاقاته الذهنية المعذبة فيء إليها كلما عصفت
به نوازع التشتت والانبهار وشطت به لامحدودية الإبداع
الفني إلى عوالم مجهولة ، ولكن شخصيته تمزقت بصورة
مأساوية ، فلم يستطع أن يوفق بين محيطه الخارجي وبين
مشاعره الداخلية العنيفة ، وأخطأ توقيت زمانه الراكد
بفكره الثواب السريع الرؤى ، فالغربة والتشرد من المظاهر
الشعرية التي حتم على بعض الشعراء قديما وحديثا أن
يعانوها بأشكال تختلف وتتفاوت حيناً بعد حين ، فلا
الدار ولا المرأة ولا المدوح ولا المنصب ولا الشهرة ولا
الجاه ولا الفكرة ولا حتى الوطن نفسه - خارجا أو
داخلا - يمكن أن ينقذ الشاعر الحقيقي من مأساة

شعر

من منشورات دار الآداب

٣٥٠	للشاعر القروي	الإعاصير
٣٠٠	لفدوى طوقان	وجدتها
٣٠٠	» »	وحدتي مع الأيام
٢٥٠	» »	أعطنا حيا
٣٠٠	لعبد الباسط الصوفي	أبيات ريفية
٢٠٠	لفواز عيد	في شمسي دوار
٢٠٠	لهلال ناجي	الفجر آت يا عراق
٢٠٠	لعندان الراوي	المشائق والسلام
٢٠٠	لخالد الشواف	حداً وغناء
٢٠٠	لأحمد الفيتوري	عاشق من أفريقيا
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	أحلام الفارس القديم
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	أقول لكم
٢٠٠	لمعين بسيسو	فلسطين في القلب
٢٠٠	لحسن النجمي	كلمات فلسطينية
٢٠٠	للدكتور خليل حاوي	بيادر الجوع
٢٥٠	لعبد الوهاب البياتي	سفر الفقر والثورة
		الناس في بلادي (ط . جديدة)
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	
٣٠٠	لابراهيم محمد نجا	الحياة الحب

وجوده وطواف ذهنه في عوالم غريبة وخروجه عن المألوف
والمصطنع المتمثل في التزييف والغباء ، ويلخص السياب
مأساة الشاعر بكلمات :

قرا ت اسمي على صخرة
هنا ، في وحشة الصحراء
على آجرة حمراء

على قبر . فكيف يحس انسان يرى قبره ؟

وقد تمنى وهو على فراش الموت بعد رحلة مضية
من التنقل من ملاذ الى آخر - دون جدوى - ان لا يكون
منفيا في موته كما كان منفيا في حياته عذابا وتوجعا
فأراد ان يحصل على قبر :

ان مت يا وطني فقبر من مقابر الحزينة
اقصى مناي .

ومثل ابي شبكة الذي حمل تابوته وسار بمأتمه
كتب السياب وهو في الغربة قبل سنين طويلة من موته
يشبه نفسه بالمسيح حاملا صليبه معه من منفى الى آخر:

الشمس اجمل في بلادي من سواها والظلام
حتى الظلام هناك اجمل فهو يحتضن العراق
واحسرتاه متى انام

فأحس ان على الوسادة

من ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق

بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة
غنيت تربتك الحبيبة

وحملتها فانا المسيح يجز في المنفى صليبه

وكما التفت مسارب الصحراء وابعادها الشاسعة
حول الشاعر الجاهلي رغمته بالحيرة والذهول والتشتت
تلتف دروب المدينة حول السياب فتتركه ممزقا ملتاعا :

وتلتف حولي دروب المدينة

حبالا من الطين يمضفن قلبي

ويعطين عن جمرة فيه طينة

حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينة

ويحرقن جيكور في قاع قلبي

ويزرعن فيها رماد الضفينة

وينادي سعدي يوسف من منفاه وقد امتدت به

الآفاق حتى آخر الدنيا واخذت رؤى شط العرب الغامض
المستوحش النائي تعاوده في تطلعاته وتهويماته واحلامه :

سلاما ايها الحي الذي لم نفترب فيه

ولم نطعم مآكله ولم نترك مقاهيه

سلاما ايها الاعمى المفني قصة التيه

ويا متسوليه

وباعة التبغ المهرب والافاويه

ويا شيئا يفوح على ازقته

ويزهر في نواحيه

شممت على البعاد مدينتي فيه .

ويحمل عبد الوهاب البياتي الغربة معه الى اصقاع

شتى من هذا العالم ، موكلا بفضاء الله يذرعه ، لا يحيا

ولا يموت ، انما هو شيء بين شيئين ، يأتي ولا يأتي، حتى
اصبحت الغربة سمة من سماته لا يستطيع ان يحيا
بدونها وحتى استقطبت الغربة فيه فصارت هي الوطن
ذاته فاذا افتقدها الشاعر فسيكون غريب غربتين :

القمر الاعمى يبطن الحوت

وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت .

ويهاجر من بلد الى بلد يطارده المصير المجهول
والحنين الى ظل وارف موهوم والى مستقر من الارض
قد يجد نفسه فيه - ان عثر عليه - اكثر غربة وتشتتا
وذهولا :

يا صرخات النور

ها انذا محاصر مهجور

ها انذا اموت

في ظلمة التابوت

ياكل لحمي ثعلب المقابر

تطعنني الخناجر

من بلد لبلد مهاجر .

ويكي البياتي على الاسوار كما بكى الشاعر الجاهلي
على الظلل :

عشرون عاما وانا ابكي على اسوارها واحمل

الاكفان

لكنها ظلت كاورشليم

ملعونة تعج بالذباب والاصفار والحريم

اصيح منفا على الاسوار

بابل يا مدينة الاشرار

قومي وغطي عري هذا الجسد الدابل بالازهار .

ويستقطر مأساة قلبه وحنينه الى المرآة الداھبة

والوصل المحترق بفراق دائم في صورة الارض المستقرة

التي نضبت منها مياه نهرها فاحترقا في القيعان، ولكن

شيئا ما - رمزا - لما يزل باقيا :

تبادل النهران

مجريهما واحترقا تحت سماء الصيف في

القيعان

وتركا جرحا على شجيرة الرمان .

ويلتقي البياتي بالشاعر الجاهلي عبد يفوث صاحب

هذا البيت :

فيا راكبا اما عرضت قبلفن

نداماي من نجران ان لا تلاقيا

فيحييه بقصيدة تظهر حسرة هذه الارض التي طال

حنين الشاعر اليها ، ولم يسقها مطر ولم يعشب فيها

زهر :

يا راكبا نجران

بلغ نداماي اذا ما طلع النهار

واقتمت مدينة الموتى خيول النار

وشط بي الزار

ان لا تلاقيا ولا لقاء

وابك على طفولتي امام صمت القبر .

.....

وحتى العرار الذي تمتع من شميمه الصمة بسن
عبد الله القشيري للمرة الاخيرة حرمه البياتي على نفسه:

قالوا : « تمتع من شميم

عار نجد » يا رفيق

فبكيت من عاري

« فما بعد العشية من عرار » .

وعبر الشاعر الجاهلي عن قلقه وحيرته بالانتقال من
مكان الى مكان اسير الطبيعة والانواء لا يهدأ ولا يستقر ،
وعبر الشاعر الحديث اسير الفكرة والمعاناة عن تشتته
وانبهاره بالتنقل من هوى فكري الى آخر ومن منفى الى
ثان دون ان يجد الجد والحفيد خلاصا ، لقد احكم القدر
قبضته على بعض الشعراء وقضى عليهم دوما بهذه المعاناة
القاسية وبدونها لا يصبح للشعر معنى ولا للشاعر وجود
فهو منفي ابدًا في كل زمان ومكان ، وهذا النفي من
سمات الشاعر الحقيقي ومن متطلبات الابداع الفني الذي
قد يقترب في ذروته من الجنون .

ويضرب الشاعر المحدث في هذه المفازات الفكرية
الشاسعة علوا وهبوطا ، امتدادا وتقلصا ، فلا يهدأ ولا

يستقر فيغذ السير كالشاعر القديم في رحلات مجهولة،
وقد يلف الحذاء تهويماته اللامتناهية ايضا ، وكما كان
طرفه ورهطه مخلعين مشردين اصبح بعض الشعراء
المحدثين منفيين تطاردهم الظلال الموهومة .

ان الحمى الفكرية سمة من سمات الشعراء والفنانين
في كل عصر وزمان فهم عبثا ينشدون الخلاص فيتطلعون
الى آفاق مجهولة ، فاذا قيض للشاعر الجاهلي ان يستقر
في ارض ثابتة ترعاه الحبيبة فلا شك انه سيرفض هذه
الحالة بعد حين ويتمرد عليها - وان طال حنينه اليها -
ويظل في سفر دائم وقلق مستمر ، واذا قيض للشاعر
المحدث ان يعيش آمنا مطمئنا في وطنه فلا شك انه
سيتمرد على حالة الهدوء والدعة وتؤدي به منازعه
الشعرية الى ان يبحث عن عوالم جديدة ، فهل الشعر
مغامرة حقا؟! وهل الشاعر ضحية واسير؟!!

وهكذا التقى الشاعر الجاهلي والحديث ، كل
حسب تطلعاته وظروفه ، في الحنين الى وطن هم فيه ،
او في الغربة والحنين الى وطن هم ليسوا فيه ، فان كان
ذلك كذلك ، وما دام هذا النسغ من ذاك الجذر ، ونحن
بعد لم نقتطف الثمار ، فلم هذا الجدل العقيم بين الشعر
القديم والجديد؟!!

جلال الخياط

بنغازي - كلية الآداب والتربية

هذا الشهر

تسريح جنة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوربية محض ، وهو يتلمس الصلة
بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت
المسيحية ظلها على اوربا ، وصلة ذلك بالفزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاختفاء الجوانب الاقتصادية
الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة
ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .
ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق
للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي فسي آسيا وافريقيا ،
وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب